

«عيش حاف»

فى زيارة أخيرة إلى تونس، التقيتُ زملاء بعضهم من المغرب العربى. وفى نقاش مع أستاذ العلوم السياسية المغربى د. إدريس لكريمى، تطرقنا إلى الأديب الراحل الكبير محمد شكرى الذى حلت ذكراه الثانية عشرة فى 10 نوفمبر الماضى.

اشتهر شكرى عربياً وعالمياً بروايته المثيرة للجدل «الخبز الحافى» أو «العيش الحاف» وفق اللهجة المصرية. لكن عنوان الرواية يحيل إلى حياة الفقر والبؤس والتهميش بوجه عام، لأن الخبز ليس مقصوداً بذاته فيها.

كان شكرى أحد أكثر من أبدعوا فى التعبير عن المجتمعات المهمشة الفقيرة البائسة وانسحاق الناس فيها، من خلال حياته هو شخصياً. ففى هذه الرواية سيرة ذاتية هى الأكثر صدقاً وصراحة وشجاعة وجرأة فى تاريخ كتابة هذه السيرة فى بلادنا العربية. فالثقافة السائدة فى هذه البلاد هى إضفاء كل ما يظن الإنسان أنه يشينه حتى إذا كان هو الضحية. ولذلك أحدثت رواية شكرى صدمة هائلة لدى من لم يتعودوا على الصدق والوضوح والاستقامة، وصودرت فى معظم البلاد العربية بدعوى أنها تتضمن تعبيرات خارجة وتروى عن مشاهد حميمة.

وكان بعض البؤساء والأكثر انسحاقاً هم الأكثر هجوماً على رواية شكرى،
بمن فيهم بعض أفراد عائلته التى كانت حياته القاسية وسطها فى قرية
نائية شمال المغرب فى قلب هذه الرواية.

ولعل هذا الميل لدى البؤساء إلى قبول فقرهم بوصفه قدراً هو أحد
العوامل التى تفسر استمرار الظلم الاجتماعى وضعف قوى التغيير
ودوران بلادنا العربية فى حلقات مفرغة وعدم قدرتها على الالتحاق
بالعصر الحديث. لم يكن شكرى من هؤلاء الراضين ببؤسهم. كان عقله
يعمل منذ طفولته رغم حرمانه من التعليم بسبب الفقر الذى يمنع ملايين
الأطفال فى معظم بلادنا العربية من نور المعرفة كل عام. لم يتعلم القراءة
والكتابة إلا فى سن العشرين. ومع ذلك انفجرت الطاقة الإبداعية الكامنة
فى داخله، وأنتجت أعمالاً يفخر بها الأدب العالمى كله، وليس الأدب
المغربى والعربى فقط. فقد تُرجمت بعض أعماله إلى عشرات اللغات.

وإذا كان الرائد نجيب محفوظ هو أروع من عبر أدبه عن الطبقة الوسطى
المصرية، فشكرى هو أهم من أبدعوا فى تصوير حياة المهمشين
المسحوقين فى كل مكان.

فتحية لروح محمد شكرى فى ذكراه، ومناشدة لمحبي القراءة من شبابنا
أن يعودوا إلى ما يتيسر لهم من أعماله.